صورة تلمسان في رحلة ابن بطوطة

يامنة جبور
اشراف الدكتور: ابن عزة عبد القادر
كلية الآداب واللغات
جامعة تلمسان

الملخص:
كثيرة هي الأقطار التي حظيت بزيارة الرحالين العرب أو الأجانب إليها وخصصوا لها جزء في كتاباتهم الرحلية إلاّ أنّها قليلة تلك التي تسمى الجوهرة، فتجلب إليها الأنظار رحالة أو غيرهم، وأعني بذلك مدينة تلمسان الملقبة بجوهرة الغرب الجزائري، لؤلؤة تاج الشمال الإفريقي، والتي ما إن يذكر اسمها إلاّ وتنجلي صورة لامعة أمامك، وتحفة ناذرة في سماء البلدان الإفريقية، وهي التي حطّ الرحال بها رائد الرحالين العرب بلا منازع، رحالة العرب والغرب "ابن بطوطة"، وأعطاها مكانة هامة في رحلته،و خصّها بزيارتين، في كلّ مرة إلاّ وقادته قدماه نحو قطبها اللاّمع " أبا مدين شعيب" للتبرك به، ذلك الشيخ الذي بنفسه قادته قدماه ليرقد بين أحضان هذه المدينة الجميلة، والكريمة التي منحته أرضها لينعم بدفئها، بل وهبته بعضا من تربتها لتكون فراشه وغطاءه إلى الأبد.

توطئة:

إن كانت الرحلة عموما تعني التنقل والترحال وعدم المكوت والبقاء في مكان واحد مهما كانت الأسباب والدوافع والأهداف المرجوة، سواء تم تحقيقها، أو عاد الرحالة خائبا يجر أديال الفشل، فإنّ المثل يقول: " تعددت الأسباب والموت واحد " فكذلك يمكن أن يسير المثل على الرحلة فيمكن القول:" تعددت القواميس والمعاجم واللفظ واحد" فقبل كل معجم هناك المعجم الرباني السماوي ـ القرآن الكريم ـ فقد وردت كلمة رحلة في الكتاب العزيز في سورة قريش: " لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف." (1)

أما ابن منظور في لسانه فقد فصل في مفهوم كلمة رحلة فجاء فيه: رحل: الرحل، مركب البعير والناقة، وجمعه أرحل ورحال.

وقال طرفة بن العبد:

جازت البيد إلى أرحلنا آخر الليل بيعفور حذر

والرّحالة: نحوه، كلّ ذلك من مراكب النساء.

وأنكر الزهري ذلك قال: الرحل في كلام العرب على وجوه، ويقولون لا عواد الرحل بغير أداة رحل، ومنها ناقة رحيلة أي شديدة قوية على السير، ثم جرى ذلك على المنطق، حتى قيل: ارتحل القوم ارتحالا، ورحل عن المكان يرحل زهو راحل من قوم رحّل، انتقل.

والرحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة والرُحلة والرَحلة اسم للارتحال للسير. (2)

وفي القاموس المحيط للفيروز أبادي قال:" مضى القوم من المكان، أي عبروا وانتقلوا، وكلمة رحلة مصدر اشتق من الفعل رحل، ومنه الارتحال بضم الوجه الذي يقصده السفرية الواحدة، يقال راحله أي عاونه على راحلته،أي استرحله، سأل أن يرحل له، ومنه هذا رحل الرجل، أي منزله ومأواه، فهو من هذا لأنّ ذلك يقال في السفر لأسبابه التي إذا سافرت كانت معه يرتحل بها عند النزول وهو الأصل." (3)

وتطلق كذلك على الدابة إذا سمنت فأرحلت بعد هزال فأطاقت الرحلة" (4) لقول الشاعر:

ومصاب غادية لحان تجارها نشرت عليه برودها ورحالها (5)

أمّا في المعجم الأجنبية، الفرنسية خاصة تقابل كلمة سفر ورحلة المعنى نفسه وسافر ورحل تعني Voyagerوالفاعل مسافر ورحلاتي Voyageur ومن يقوم بالعديد من الرحلات

من خلال ما سبق يتضح أن وقوف المعاجم العربية والفرنسية على المعنى اللغوي وكلها تصب في قالب واحد وتتحد على معنى واحد ومفهوم واحد، أنّ الرحلة تعني السفر والارتحال والانتقال من مكان إلى آخر سواء كان عن رغبة أو عن إكراه.

أمّا مفهومها اصطلاحا فهي لون من التأليف الذي يجمع بين الدافع العميق والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة دقيقة والبحث عن الأسباب والنتائج ببصيرة واعية." [8]

كما يذكر محمد الفاسي:" أنّ الأساس في هذا النوع هو شخص المؤلف ووصفه ما يعرض له في سفره، ويذكر الإحساسات التي يشعر بها أمام المناطق التي يمر بها التي يمر بها مع اطلاعنا على أحوال البلاد التي يزورها، وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم، وأفكارهم وهو في هذا يعبر عن نفسه، وعن عواطفه ووجهة نظره الخاصة في كل مسألة"[9]

فهذه المفاهيم توضح لنا أن الرحالة لا بد له أن يجمع في أثناء تدوين رحلته بين إحساساته العميقة، وبين تأملاته الدقيقة مضيفا إبداء دوافعه للرحلة ونتائجها وأهدافها، حتى يتمكن من أن ينقل للقارئ كل ما شاهدته بصدق وموضوعية عن أفكار وعوائد وتقاليد وأخلاق تلك المجتمعات التي قام بزيارتها معبرا عن نفسه وعواطفه ووجهة نظره في كل ما يعرض له.

فالرحلات تختلف باختلاف الأهداف المنشودة والتي يمكن تحقيقها من وراء قيام الرحالين بزيارات لمختلف البلدان والبقاع، فيشترط في الرحالة أن يكون دقيق الملاحظة، واسع الإطلاع ، عارفا بلغات الأقوام التي ينزل عندهم، متطلعا على تاريخهم ومعتقداتهم، وجغرافية بلادهم، حتى يتمكن من تصنيف رحلته في أيّ باب لتكون جغرافية، أو علمية، أو تاريخية، فيجيء تدوينه للرحلة بأسلوب شيق ومشوق، فيه الكثير من الإثارة بألفاظ عذبة منمقة، موحية ومعبرة ومؤثرة في النفوس البشرية، حتى يمكنها من الرغبة في زيارة تلك البلدان التي زارها الرحالة، وأبلغ عندها بإبداع تصوير ودقة وصف.

وفي الأدب العربي الكثير من تلك الرحلات ذات الخيال الواسع التي تحمل في طياتها الكثير من القصص الخرافية الأسطورية، مثل رحلة " السندباد البحري" وقد يذهب الرحالة بكتاباته بعيدا، فيصور بإبداعاته على شكل نظم، كما كان في أغلب قصائد الجاهلية التي تفتح عادة بالبكاء على الأطلال حتى أصبحت تلك عاداتهم التي ينبغي الحياد عنها، وغالبا ما تكون رحلة الشاعر على ظهر ناقته، أما واصفا لما رآه، وما وجده في الديار التي غادرها، ثم عاد إليها من جديد ليجدها خرابا، أو واصفا معاناته بسبب فراق الأهل والأحبة، ولذلك يقول الدكتور شوقي ضيف: " فالإنسان ولد رحّالا، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال"[10]

وهذا يعني أنّ الرحلة قديمة قدم الإنسان نفسه، فهو دائم الترحال والتنقل يجوب الأقطار شمالا، وجنوبا، وشرقا، وغربا، يسطر لخط رحلته مسارا يسير وفقه، وينشد لنفسه أهدافا يرغب في تحقيقها، بالرغم من المشاق والمتاعب التي تعترض سبيله، ومهما كلفه الأمر، وإن عاجزا على أن يقوم بالرحلة، ابتدع واخترع لنفسه رحلات في صنع خياله مدونا إياها حتى تشهد على براعته في التصوير والوصف، وحتى يسجل اسمه ضمن قائمة الصنوف الأدبية المتنوعة، جاعلا لكتاباته اسما وعنوانا هو أدب الرحلات.

وأشهر الرحالين العرب والغرب، بل أشهرهم في العالم كله، الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي جاب العالم والبلاد العربية وآسيا والأندلس أعظم رحالة للمسلمين، وأول مكتشف لبلدان افريقية، صور الكثير من العادات والتقاليد لتلك البلدان، فجاءت رحلته صورة شاملة، ودقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن هجري، وإبراز الجوانب مشرقة للحضارة الإسلامية.

من يكون ابن بطوطة؟

هو محمد بن عبد الله اللواتي، ويكن بأبي عبد الله وابن بطوطة شهرة اشتهر بها هو وعائلته، رحالة ومؤرخ، ولد سنة (703 هـ / 1304 م) في مدينة طنجة بالمغرب الأقصى جاب العالم في مدة سبع وعشرين سنة وعنوان رحلته:"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"توفي في مراكش سنة (779 هـ/ 1377م) [11]

ومن بين البلدان التي حظيت بزيارة هذا الرحالة العبقري، ونالت شرف إقامته فيها، الجزائر عروس المغرب العربي، والتي خصص لها جزء هاما في كتاباته الرحلية، حيث جال وجاب معظم مدنها، وجعلها ضمن خط مساره الرحلي، هذه الأرض الطيبة، طيبة أهلها، الكريمة كرم سكانها، هذا البلد الواقع شمال

القارة الإفريقية، ذات الموقع الاستراتيجي الهام، المطلة على البحر الأبيض المتوسط المتوسط، حيث "تعتبر عند الشمال الإفريقي والدرة الوهاجة في تاجه الثمين"[12]

إذن إن كانت الجزائر تلك الدرة الوهاجة المتلألئة اللامعة في ذلك التاج الذي يعلو رأس القارة الإفريقية السمراء، فكيف لا يعجب بها من رآها، فيطلق العنان لخياله يسبح في سماء الإبداع ، ليصور بقلمه، ما أحس به قلبه وما جاشت به عواطفه، ليخرج لنا مولودا جديدا اسمه فن الرحالة في ربوع الوطن الجزائري، وعلى هذا الأساس كانت الجزائر قبلة الكثيرين من الرحالين عربا وأجانب، افتتنوا بسحر طبيعتها وجمال البناء والعمران فيها، فراحوا يصفون ويصورون، يتأملون المنظر الخلابة المتكونة من جبال شاهقة في السماء، المكللة بالثلوج فتبدو وكأنها عروس في ثوب زفاف أبيض، كجبال الشريعة، حيث قال أحمد توفيق المدني عنها:" فيها من المناظر الطبيعية البديعة ما يسبي العقول، ويذهل الأبصار كجبال جرجرة، والأوراس، والونشريس، وتلمسان"[13]

ثم يضيف:" خلال هذه الجبال، كونت الأودية خلال ذات روعة وجلال، مثل فج خراطة الشهير في جبال البابور، وفج القنطرة في الأوراس، ومضيق الرميل بقسنطينة" [14]

حقا إنها مناظر رائعة تستحق الوصف والتصوير، والإعجاب، والاندهاش، حتى وإن كان المتأمل في جمالها إنسان عادي، فكيف إن كان الوقف أمام هذه الطبيعة الساحرة رجل عبقري، رحالة متمكن، جغرافي بارع، كابن بطوطة ومن ضمن مدنها جوهرة الغرب الجزائري، مدينة العلم والعلماء، ومهد الحضارة والفنون، ومنبع الثقافات، قبلة السياح المتجولين باحثين عن الجمال أينما كان، مدينة تلمسان التحفة الفنية، بها أصل الحضارة التي لا تضاهيها أي حضارة، لما تحفل به من مآثر عمرانية، تبقيها خالدة مدى العصور، مهد الحضارة الإسلامية، ومرسى الفنون المعمارية، تحفة ناذرة التي تعددت ألقابها وأسماؤها، نتيجة تعاقب الحضارات عليها، فقد أطلق الرومان عليها اسم "بومارية" وتعني البستان، وسميت "أغادير" وتعني الجدار القديم، أو المدينة المحصنة" [15]

ثم سميت " تلمسان" وهو اسم مركب من كلمتين (تلم) و (سان) وقد جاء في نفح الطيب للمقري:" أن معنى كلمة (تلم) هي تجمع أما(سان) فمعناها اثنان أي الصحراء والتل"[16]كما ذكر أن اسمها مركب من (تلم) و(شان) ومعنى ذلك أنّ المدينة ذات شأن عظيم"[17]

وقد أطلق عليها المرابطون في القرن الخامس هجري اسم (تاقرارت) ومعناها معسكر، وهم من أنشأوا مدينة تلمسان، ومسجدها الجامع أثناء حصارهم لها" [18]

كما أطلق عليها اسم (المنصورة أو تلمسان الجديدة) بناها المرينيون من أهل فاس، وشيدوا مسجدا جامعا وقصرا مسوّرا" [19]

هكذا تعددت الأسماء والألقاب والبلد واحد ـ تلمسان ـ تلك العروس التي تزينت لتشرف الوطن الجزائري، وحتى يحلم الكثيرون بزيارتها، وهذه دلالة على مكانة تلمسان العلمية ذات الفكر والأدب، فهي عريقة عراقة غوصها في أعماق التاريخ، ولذلك توافدت عليها أقوام من مختلف الأنساب والأعراق واللسان، وحطّت الرحال بها، فكانت الأسماء التي أطلقوها عليها إما بالنسبة لأشجارها وينابيعها التي تسحر الألباب، وإما بالنسبة لحصنها المنيع، وأحجارها المحيطة بها، وإمّا لموقعها الذي جعلها تتوسط المغرب العربي، وإمّا باعتبارها نقطة فاصلة بين التل والصحراء، وإمّا بالنسبة لشأنها العظيم، وقيمتها الرفيعة بين مختلف البلدان، وإمّا لتجمع العلماء والأدباء،و مكان اللقاءات والندوات والملتقيات للتحاور والتشاور في أمور تهم الفرد والمجتمع لكونها معسكرا مخصصا للاجتماع.

كل ذلك أهّلها لتكون رائدة في مجال التاريخ، فهي قديمة جدا، وبعد ذلك جاء دور الفاتحين المسلمين إليها من المشرق العربي على رأسهم عقبة بن نافع الفهري.

هذا جانب قليل عن المدينة المضيافة، وعن تاريخها العريق، حيث تغنى بجمالها الكثيرون، ونظموا بشأنها الكم الهائل من القصائد، عرفانا بقيمتها وجمالها، وخير مثال عن هؤلاء الشعراء الذين سحرهم جمال تلمسان، فراح يناشدها الأمير عبد القادر الجزائري وملبيا نداها قائلا:

إليّ الصون مدّت تلمسان يداها ... ولبت فهذا حسن صوت نداها

وقد رفعت عنها الإزار فلج بـــه ... وبـــرد فؤادا من زلال نداهـــا

وذا روض خديها تفتق نـوره ... فلا ترض من زاهي الرياض عداها

ليس هذ فقط وإنما ما من زائر للجزائر، إلاّ أخذته الأقدار باتجاه تلمسان حيث يتخذها إحدى محطاته، ثم يعود ليدون ما وقعت عليه عيناه في هذه المدينة الفتية الساحرة، ليولها عناية كبرى، ويخصص صفحات لها في كتاباته الرحلية، ومن بين الرحالين العرب الذين استوقفتهم تلمسان كخط عبور منها إلى مناطق أخرى، وهم ليسوا بالعدد القليل، بل هم كثر راحوا يسجلون انطباعاتهم وملاحظاتهم حولها نظرا لما تزخر به مناظر طبيعية خلابة، وموقع جغرافي جذاب ومعالم أثرية ومرافق عمومية، ومباني عمرانية، ومن عادات وتقاليد قلّما نجدها في منطقة أخرى سواء داخل الجزائر أو خارجها.

فقد وصف اليعقوبي عمرانها قائلا: " مدينة عظمى مشهورة بالمغرب، يقال لها تلمسان، وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر من حجارة." [21]

كما تشتهر تلمسان بعدد الأبواب الموجودة فيها، ولا تزال حتى الآن فيها قيل عنها انها سبعة، وقيل إنها خمسة، كما جاء في تعداد الرحالة البكري:" تلمسان مدينة مسورة في سفح جبل، شجرة الجوز، ولها خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة، باب الحمام، وباب وهب، وباب خوجة، وفي الشرق باب العقبة، وفي الغرب باب أبي قرة" [22]

وبما أنّها مدينة العلم والعلماء، مدينة الأدب والأدباء، مدينة الفقه والفقهاء والشيوخ، عدهم القلصادي أولئك الذين أخذ عنهم العلم علة أيديهم طيلة مدة إقامته في تلمسان حيث اعترف وأقر بفضلهم عليه وكيف أنه اكتسب من ورائهم تجارة رابحة، وأن ما حصل عليه من علم بالجلوس إلى مجالسهم وحضوره ندواتهم، ودروسهم هو تحصيل مشرف فيقول:"فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان" [23]

ومن هؤلاء العلماء والشيوخ: " محمد بن مرزوق، عيسى الرتيمي، محمد الشريف، أحمد بن زاغو وغيرهم" [24]

دون أن ينسى القلصادي الاعتراف بجمال المدينة لتنوع أشجارها وحدائقها، وأنهارها فقال عنها:"تلمسان يا لها من شان، ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الدافقة، والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة"[25]

أمّا ما جاء فر رحلة عملاق الرحالين العرب المسلمين بلا منازع، الذي ذاعت شهرته في كل بقاع العالم العربي والغربي، زعيم الجولات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والعقائدية، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة تحفل بها البلدان التي زارها، ألا وهو ابن بطوطة الذي جاب وجال معظم البلاد العربية والغربية، وجمع في كتاباته الرحلية، العادات والتقاليد والعجائبية فيها تاريخ وجغرافيا الأقوام والساحر منها، عمران وبناء مساكنهم والفن والإبداع فيها

ومن ضمن محطاته التي حطّ الرحال بها مدينة تلمسان الجزائرية، وخصص لها جزء في رحلته بعد أن تأملها" وكان ذلك في عهد السلطان أبي تاشفين عبد الرحمان في أول القرن الثامن الهجري" [26]

وبقد دامت إقامته ثلاثا إقرارا منه لقضاء مآربه، إلاّ أنّ زيارته اقتصرت على زيارة الأولياء الصالحين، والتبرك بأضرحتهم حيث يقول:"... ثم خرجنا فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس ثم إلى مازنونة، ثم إلى مستغانم، ثم إلى تلمسان فقصدت العباد، وزرت الشيخ أبا مدين رضي الله عنه ونفع به، ثم خرجت عنها على طريق ندرومة وسلكت طريق أخندقان، وبت بزاوية الشيخ ابراهيم"[27]

يبدوو أنّ الرحالة مولع بزيارة أضرحة أولياء الله الصالحين، ربما كان الشوق إليها نتيجة جمع معلومات عن المدينة الفتية الساحرة، وأن أروع ما فيها قطبها اللامع، فهو تحفة فنية، وجوهرة ناذرة، وآية في الجمال في الفن والهندسة العربية البديعة، جعلت الرحالة يعاود زيارتها ليستجمع ما قد غفلت عنه عيناه في زيارته الأولى السابقة، وكان ذلك عام خمسين وسبعمائة للهجرة فقال:" وصلنا تلمسان، فقصدت العباد، وزرت الشيخ أبا مدين رضي الله عنه ونفع به"[28]

فصل المقال:

استحوذت تلمسان عروس الزيانيين على عقول محبيها، وزوارها بجغرافيتها الساحرة، وتاريخها المجيد الضاربة جذوره في أعماق التاريخ، وطبيعتها الخلابة، وموقعها الاستراتيجي الذي يفصل التل عن الصحراء، وحدائقها وبساتينها بأشجارها الباسقة ورياضها الغناء، وعمرانها وآثارها المعمارية، ذات النحوت والزخارف، ولا سيما أولئك الرحالين الذين قصدوها، فهناك من أطال إقامته بها وهناك من

قصرت، وهناك من جعلها نقطة عبور المهم في الأمر أنها جلبت إليها الكثيرين، فتغنوا بها، ودونوا ما تحتويها، إما على شكل قصائد، وإما في كتابات رحلية، ومن النتائج المستخلصة ما يلي:

ـ أنها تعددت أسماؤها وألقابها لتعاقب الحضارات عليها

ـ ألقابها كانت حسبما استهوت المقيمين فيها كالأسوار، والينابيع، والحدائق، والرياض، مكان التقاء العلماء والفقهاء.

ـ توافد الرحالة عليها كان لوصف وتصوير جمال المنطقة بإبداع.

ـ رآها القلصادي مكان الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم بقسط وافر.

ـ رآها ابن بطوطة مضجع الأقطاب والأئمة.

هوامش الدراسة :

1 - القرآن الكريم: سورة قريش - الآيتان 1 - 2
2 - بن منظور - لسان العرب - دار صادر - بيروت - المجلد 10 - ص 38
3 - الفيروز أبادي محمد بن يعقوب - المحيط - دار الجيل ط 3 بدون سنة ص .309
4 - أبو الحسن أحمد بن فارس الرازي - مقاييس اللغة - تحقيق عبد السلام بن هارون - دار الجيل - د ط بيروت بدون سنة ص .497
5 - الأعشى - الديوان - دار بيروت للطباعة والنشر، د ط بيروت، د تا - ص .137
6 - larousse le dictionnaire de francais omega international sarh ed speciale algeriev2001voyage p 453.
7 - iblot le dictionnaire olfaraid arabe / francais ed oriotal bibliotheque cathroliquevt 21 beyrouth p 240.
8 - محمد بن عثمان المكناسي - الأكسير في فكاك الأسير- تحقيق وتعليق علي الفاسي - المركز الجامعي للبحث العلمي د ط الرباط 1965 ص 1 من المقدمة.
9 - حسين فهيم - أدب الرحلات - عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ع 138 يونيو 1989 - الكويت ص 13
10 - عبد الله بن آل حمادي - رسالة ماجستير - أدب الرحلة في المملكة السعودية - جامعة أم القرى - السعودية 1997 ص 10
11 - ابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة - تحقيق محمد الكتاني ج 1 ص 30
12- أحمد توفيق المدني - هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر - دار البصائر - الجزائر 2009 ص 216
13 - المرجع نفسه - ص .218
14 - المرجع نفسه - ص 218
15 - محمد بن عمرو الطمار - تلمسان عبرالعصور- المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1984 ص 08
16 - المقري - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس - دار الأبحاث بدعم من وزارة الثقافة ج 9 2008 ص 24
17 - المرجع نفسه - ص 24
18 - سعد بوفلاقة - أوراق تلمسانية - منشورات بونة للأبحاث والدراسات - عنابة - الجزائر 2011 ص 21
19 - المرجع نفسه - ص 22
20 - مجلة مسالك الصادرة عن مؤسسة الأمير عبد القادر فيفري 2012 عدد خاص بالملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر عابر للزمن ص 46
21 - سعد بوفلاقة - أوراق تلمسانية - منشورات بونة للأبحاث والدراسات - عنابة - الجزائر 2011 ص 98
22 - المرجع نفسه - ص 100
23 - القلصادي - رحلة القلصادي - دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان - الشركة التونسية للتوزيع - تونس 1978 ص 94
24 - المرجع نفسه - ص 95
25 - المرجع نفسه - ص 95
26 - سعد بوفلاقة - أوراق تلمسانية - منشورات بونة للأبحاث والدراسات - عنابة - الجزائر 2011 ص 106
27 - ابن بطوطة - رحلة ابن بطوطة - تحقيق محمد الكتاني ج 1 ص 30
28 - المرجع نفسه - ص 30